

أسلوب القرآن في المحاجة والجدل وخطابة أرسطو

الأستاذ عبد الوهاب محمود

المدرس بكلية الحقوق

٢

النصرانية في بلاد العرب

(١) النصرانية دين من الأديان التي كانت قبل الاسلام ببلاد العرب ، وهذه اللفظة كما تدل على الدين تكون واحدة النصارى ، ومفردهم نصران منسوب - على رأى اللغويين - إلى بلدة الناصرة ، كان ينزلها عيسى عليه السلام . فنسب إليها فقيل : عيسى الناصرى (١) . والناصرة تتبع مدينة داود المعروفة ببית لحم .

والذى جاء بهذه الديانة في ثوبها الصحيح هو عيسى عليه السلام ، وقد ذكر اسمه في القرآن بلفظ المسيح تارة وهو لقب له ، ولفظ عيسى وهو اسمه العلى ، وبكنيته ابن مريم تارة أخرى . أما لقبه فيقول بعض اللغويين إنما لقب به لكونه ماسحاً في الأرض ، أى ذاهباً فيها . ولكن رأى الأقرب الى الصواب أن هذه الكلمة مأخوذة من الكلمة العبرية مشيح ، بمعنى ممسوح بالدهن ، أى مدهون ، فعرب فقيل مسيح . وأما عيسى فهو معرب عن العبرية ، وهو فيها يشوع ، أى المخلص ، إشارة الى أنه سبب لتخليص كثيرين من آثامهم وضلالهم (٢)

(٢) دخلت النصرانية بلاد العرب قبل الاسلام بأكثر من خمسة قرون ، إما فراراً من الاضطهادات الدينية .

(١) القاموس والصحاح وتفسير القرطبي > ١ .

(٢) قصص الأنبياء للاستاذ النجار .

قال جول لا بوم : « أما المسيحيون فكانوا يفقدون شيئا فشيئا الى بلاد العرب ، هربا من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين ، ولكن لم يكن في حالهم نور يجذب البصر تألقه » (١) .

وقال جورج سيل : « ان ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهادات والاضطرابات في صدر المئة الثالثة لليلاد قد اضطر الكثيرين من النصارى الى أن يلجئوا الى بلاد العرب طلبا للحرية » (٢) .

ولما عن طريق أولئك المبشرين الذين كانوا يجوبون بلاد العرب ويجوسون خلال نجودها وتهامها (٣) . جاء في تاريخ الكنيسة « وكانت صحارى سورية والبلاد العربية مملوءة بالرهبان دعاة المسيحية في القرن الرابع » (٤) . وقال مرجليوث : « وكان القسوس يغشون أسواقهم العامرة ، ومجتمعاتهم الحافلة ، ليسمعوهم وعظهم وتعاليمهم » (٥) .

ثم ألم يرو الرواة في كتب الأدب أن قس بن ساعدة الايادى أسقف نجران كان يغشى سوق عكاظ ، وقد سمعه النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة على جمل أورق يخطب خطبته الوعظية المشهورة . ومرجليوث يرى ان اسمه محرف عن (Kasha) . كشأ باللغة السريانية بمعنى قس (٦) .

ويذكرون أيضا في سبب تنصر أهل نجران أن رجلا يقال له فيمون وقع بين أظهرهم ، وكان رجلا صالحا زاهدا من أهل دين عيسى بن مريم ، فحمل أهلها على المسيحية (٧) .

(١) ص ١١٨ مقدمة التفسير للعلامة فريد وجدى .

(٢) ص ١٧ من مقدمة ترجمة القرآن لسيل .

(٣) ص ٢٧ من كتاب انتشار الاسلام لولسون كاش ، ص ٣١ فجر الاسلام .

(٤) ص ١٩٩ من كتاب تاريخ الكنيسة .

(٥) ص ٤٣ كتاب محمد لمرجليوث .

(٦) ص ٤٣ كتاب محمد لمرجليوث .

(٧) ص ٣٠ الروض الأنف ج ١

ولما عن طريق التجارة ، فكان تبادل السلع يصبح تبادل الأفكار والمذاهب ، كما حدث ذلك في نقل عبادة الأصنام إلى بلاد الحجاز بما سنفضله في حينه (١) .
 (٢) دخلت النصرانية بلاد العرب وقد فسدت أصولها ، وتشعبت مذاهبها ، والتوت تعاليمها ، وكثرت طقوسها ، فنكب بها أهلها عن سواء السبيل . (٣)
 فانقسمت المسيحية فرقا وكنائس . أهم تلك الفرق ثلاث : النسطورية واليعقوية والملكانية .

منشأ هذا الخلاف أن النصرانية هي إحدى الديانات التي ولدت في الشرق ، وانتشرت في الامبراطورية الرومانية — معهد الثقافة اليونانية — وحينئذ فهي إما أن تطغى على الفلسفة اليونانية وتكتسح أمامها جميع المذاهب الفلسفية ، وإما أن تتودد إليها وتتخذ منها سندا في تأييد عقائدها الدينية ؛ فكان أن اتخذت لنفسها الطريق الثاني ، لأن كثيرا ممن اعتنقوا ذلك الدين كانوا فلاسفة قبل أن يكونوا مسيحيين . وبذلك أخذت الفلسفة اليونانية تدخل في المسائل الدينية ، كتحديد ماهية الله وكنهه وطبيعة المسيح وألله هو أم انسان اختير لتبليغ رسالة الله الى خلقه وغير ذلك من المسائل الفلسفية التي امتزجت بأصول النصرانية ولا سيما مسألة التثليث ، وأول من أثار الكلام فيها أوريجين (١٨٥ — ٢٥٤ م) .

وكانت مدرسة الاسكندرية — وهي قد ظهرت في أواخر القرن الثاني لليلاد — أول معهد اتصلت فيه الفلسفة اليونانية بالديانة المسيحية (٤) ، ثم امتدت موجة النزاع والجدال وظهور البدع فكثرت المجامع العامة أو المسكونية ، كما

(١) ص ٣٧ انتشار الاسلام لولسون كاش .

(٢) ص ١٥ مجلة الجامعة المصرية القديمة محاضرات الحضارة الاسلامية لجويدي ، ص ١١٨ و ٢٢١ و ٣٢٥ من كتاب تاريخ الكنيسة طبعة أورشليم ، ص ٢٨ من المحمدية والمسيحية ، جورج هويك .

(٣) ص ١٦٣ و ١٧٤ و ١٧٥ تاريخ الفلسفة للأستاذين محمد علي مصطفى وأحمد

يسمونها. فمن تلك المجمع، المجمع الثالث: وسببه أن نسطورس بطرك (١) القسطنطينية في سنة (٤٢٨ م) - وقد تخرج في قاليقلا (كليسيا) على يد ثيودوروس زعيم جماعة من اللاهوتيين أفرغوا الوسع في تنزيل الكتاب المقدس الى درجة العقل البشرى حيث اعتبروه خاضعا للانتقاد والتأويل اللغوى - اعترض على تلقيب مريم بوالدة الإله - ذلك اللقب الذى جعله البعض ذريعة إلى الإفراط في احترام العذراء وإكرامها - وقال: إنما ينبغى أن تدعى والدة المسيح فقط، وأن إطلاق الإله على عيسى ليس هو بالحقيقة بل بالموهبة والكرامة. وقال في خطبته يوم الميلاد: «إن مريم ولدت إنسانا، وأنا لا أعتقد في ابن شهرين وثلاثة الألوهية ولا أسجد له سجودى للإله. وكان كيرلس بطرك الاسكندرية شكس الخلق مملوا غيرة وحسدا، من تقدم كرسى القسطنطينية على كرسىه، فاتخذ تعاليم نسطورس ذريعة إلى مبتغاه، وجعل يحرض عليه كثيرين في القسطنطينية والمشرق وفي رومية وسائر المغرب، فكتبوا جميعهم إلى نسطورس ليرجع عن مقالته فلم يرجع، فتواعد البطاركة على الاجتماع بمدينة أفسس، فاجتمع بها مائتا أسقف وامتنع نسطورس من الحجي. إليهم، وشدد السريان وأهالى أنطاكية عضده. وهذا هو المجمع الثالث، وكان انعقاده في سنة (٤٣١ م) فنظروا في مقالته وحكموا عليه بالحرمان والنفي. فنفي نسطورس إلى صعيد مصر، فنزل مدينة أنخيم وأقام بها سبع سنين ومات فدفن بها. وظهرت مقالته قبلها برسوما أسقف نصيين، ودان بها نصارى فارس والعراق والموصل والجزيرة إلى الفرات وعرفوا بالنسطورية.

ثم كان المجمع بمدينة خليقدونية - الواقعة على البوسفور قبالة القسطنطينية - لكي يتسنى للملك حضوره، وكان انعقاده في سنة (٤٥١ م)، وكان مؤلفا من ست مئة أسقف من أساقفة المشرق، وسببه أن ديسقورس بطرك الاسكندرية قال:

(١) لا بطريق كما يقول بعضهم، لأن الطريق هو القائد من قواد الروم، فهو منصب سياسى. أما البطرك أو البطريرك فهو منصب دينى. (انظر القاموس وكتاب الألفاظ المعربة للسيد أدي شير. وشفام الغليل للخفاجي. ومحاضرات الحضارة الاسلامية للمرحوم زكى باشا)

إن المسيح جوهر من جوهرين، وأقنوم من أقنومين، وطبيعة من طبيعتين، ومشيتة من مشيتين. وكان رأى مرقيانوس ملك الروم أنه جسد، ورأى أهل مملكته أنه جوهران وطبيعتان ومشيتان وأقنوم واحد. فلما رأى الأساقفة أن هذا هو رأى الملك خافوه فوافقوه على رأيه، ما خلا ديسقورس وستة أساقفة فانهم لم يوافقوا الملك، وكتب من عداهم من الأساقفة بخطهم ما اتفقوا عليه. فغضب الملك على ديسقورس وأمر بنفيه فنفى. ومن هذا المجمع افترق النصارى وصاروا ملكانية على مذهب الملك مرقيانوس، ويعقوبية على رأى ديسقورس. وقد اختلف في تسمية اليعاقبة بهذا فقيل: إن ديسقورس كان يسمى قبل بطركيته يعقوب. وقيل: بل كان له تلميذ اسمه يعقوب، وكان يرسله وهو منى إلى أصحابه فنسبوا إليه^(١). وقيل: بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطرك أنطاكية، وكان على رأى ديسقورس كثير العبادة والزهد يلبس خرق البراذع، فسمى يعقوب البراذعى أو البرذعانى^(٢).

فاليعاقبة في غسان وسائر قبائل الشام، والنساطرة في الموصل والعراق، وفارس، والملكانية في بلاد المغرب وصقلية والأندلس^(٣).

(٤) كانت النصرانية اذن منتشرة على حدود الحجاز من مشارف الشام والجزيرة وسواحل الخليج الفارسي واليمن.

وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيء وقضاة وأهل نجران والحيرة^(٥).

وأهم المواطن لتلك الديانة هى الشام والحيرة ونجران، أما الشام فقد كان بها الغساسنة، ومن ملوكهم الذين يذكروهم التاريخ في تحقيق وثقة: الحارث بن جبلة

(١) ص ٢٥٧ الى ٢٦٤ تاريخ الكنيسة طبعة أورشليم، ص ٣٨٧ - ٣٨٩ > ٤ خطط المقرئى.

(٢) ص ٤٨ الفصل لابن حزم، ص ٣٨٩ > ٤ الخطط المقرئية. ص ٢١٦ شفاء الغليل.

(٣) ص ١٤٩ فجر الاسلام للاستاذ احمد أمين، ص ٦٦ روح الاسلام للامير سيد على.

(٤) ص ١٧ مقدمة ترجمة القرآن لسيل، ٣٦، ٣٧ - ٣٨ محمد لمرجلووث،

ص ٢٠ المعارف لابن قتيبة.

المشهور بالأعرج ، وكان هذا الملك نصرانيا على مذهب اليعاقبة (١) .
وقد عينه الإمبراطور يوستينيان سنة (٥٢٩ م) أميرا على جميع قبائل العرب
في الشام ، وكان يعد حاميا من حماة كنيستها .
وأخر ملوكهم هو جبلة بن الأيهم ، وقد جاء الاسلام وهو على ملكه ، وأسلم
في عهد عمر رضى الله عنه .

أما الحيرة فقد تنصر كثير من ملوكها ومذهبهم النسطورية . وكان فيها
مبشرون بالمسيحية داعون إليها . وللعباد شأن في ذلك ، وهم في الأصل قبائل شتى
من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية في الحيرة ، وكانوا كما يقول نيكلسون
يبيعون الخمر ، وفي مجالس شربها يلقون تعاليمهم المسيحية ويبشرون بديانتهم
النصرانية . وهكذا لقنوا الأعشى وعدى بن زيد مبادئهم مما سنوضحه بعد (٢)

وأول من تنصر من ملوك الحيرة النعمان الثالث بن المنذر أبو قابوس . وهو
صاحب النابغة الذبياني ، في القرن السادس . لا كما قال دوزي . إنه المنذر بن
ماء السماء ، فإن هذا كان يعبد الأصنام ويذبح الذبائح للعزى كسائر عرب الجاهلية (٣) .
ويعزو نيكلسون هذا التنصر إلى تربية النعمان الأولى ، فقد كانت تربيته
على يد أسرة نصرانية نبيلة في الحيرة ، هي الأسرة التي على رأسها زيد أبو عدى
الشاعر . فقد كان النعمان تلميذا لعدى يروى شعره ويصغى الى نصائحه ووعظه ، مما
سند كطرفا منه بعد (٤) .

وأبطل ملوك الحيرة في التنصر لسبب ، وهو أن الكاسرة الساسانية كانوا أعداء
النصارى الروم ، ولما كانت مملكة الحيرة في طاعة الكاسرة خافوا أن يدينوا للملة
تكرها الساسانية ؛ هذا ما كان من أمر الملوك ، أما الشعب فالنصارى فيه كثيرون ،

(١) ص ٥١ تاريخ آداب العرب نيكلسون ، ص ١٩٢ تاريخ العرب قبل الاسلام
جورجى زيدان .

(٢) ص ١٣٩ نيكلسون تاريخ آداب العرب .

(٣) ص ١٠٨ محاضرات جويدى في الجامعة المصرية القديمة .

(٤) ص ٤٥ - ٤٧ نيكلسون تاريخ آداب العرب ، ص ١٧١ ج ٢ ابن خلدون .

وكان في الحيرة أسقف منذ أوائل القرن الخامس الميلادي ، والكنايس والأديرة بها كثيرة ، منها كنيسة بنتها هند بنت الحارث كتبت اسمها في كتابة فوق الكنيسة .

وبموت النعمان الثالث أبي قابوس سنة (٦٠٢ أو ٦٠٧ م) ألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخمين ، وولت من قبلها حاكما فارسيا يخضع له أمراء العرب واستمرت الحال على ذلك حتى سنة (٦٢٢ م) حين فتحها خالد بن الوليد في عهد أبي بكر رضي الله عنه .

وأما نجران فهي أهم مواطن للنصرانية . وأكثر المؤرخين على أن أهل نجران قد حرقهم بالنار ذو نواس اليهود الشديد التعصب لليهودية حين دعاهم إلى دينه فأبوا إلا البقاء على دينهم المسيحية . وكان ملك ذي نواس في اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد (١)

غير أن ما يرويه بعض المؤرخين من أن هؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين نزل فيهم قوله تعالى (قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) غير سديد ومشكل . لأن المقصود من هذه السورة تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن إيذاء الكفار ، وتثبيت قلوبهم وحملهم على الصبر والمجاهدة في سبيله ، وتذكيرهم بما جرى على من تقدمهم من التعذيب على الإيمان . وهذا لا يكون إلا إذا كان من نزل بهم ذلك العذاب مؤمنين موحدين كما تنص عليه الآية . مع أنه ثابت أن أهل نجران كانوا على دين النصرانية وعلى مذهب اليعاقبة ، كما يفسر لنا ذلك إنجاد الحبشة لهم ، ومعاربتهم لليمن قصاصا من ذي نواس محرقهم .

ولحل هذا الإشكال يجيب الأستاذ الامام في تفسيره (جزء عم) بأن المؤمنين كانوا نصارى نجران عند ما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة .

(١) ص ١٠٤ جويدى محاضرات الجامعة المصرية القديمة ، ص ٣٦ مرجايوت كتاب محمد ص ٢٧ نيكلسون تاريخ آداب العرب ، ٤٢ ترجمة القرآن رودويل ، ص ١٧ مقدمة ترجمة القرآن نسيل

وهذا عندى لا يحل الاشكال ، لأنه من الروايات التاريخية - التى يكاد يكون جمعا عليها - أن أهل نجران حين حرقهم ذو نواس كانوا قد فسد دينهم وظهرت فيهم الاحداث والبدع التى دخلت على أهل دينهم بكل أرض (١) ، ولهذا ذهبوا يستجدون بقيصر الروم - لأنه على دينهم - من اليعقوبية فاعتذر قيصر لبعدا الشقة ، وكتب الى ملك الحبشة فى ذلك . هذا وقد كان بنجران بيعة تعرف بكعبة نجران بناها بنو عبد المذنان على بناء الكعبة ، وعظموها مضاهاة للكعبة ، وكان فيها أساقفة . وهم الذين جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى المباهلة فى السنة التاسعة من الهجرة .

ومن يرجع إلى مناقشتهم النبي يعلم مبلغ تعصبهم لدينهم وتمسكهم بكفرهم . وليس بين هذه المناقشة وتلك الحادثة - حادثة اضطهاد ذى نواس لهم - أكثر من مئة سنة ، وبينها وبين تاريخ نزول السورة أقل من تسعين سنة .

والأفضل عندى هو ما أخرجه الترمذى ومسلم فى سبب نزول السورة . ومن أراد فليرجع اليه فى معجم البلدان لياقوت (فى كلمة نجران) . وفى الألوسى فى تفسير السورة وفى الروض الأنف للسبلى (ص ٣٤ ج ١) .

ومهما يكن من شئ . فإن النصرانية دامت فى نجران حتى ذهب وفدهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة من الهجرة ، فصالحهم على الجزية (٢) ، ثم استمروا على دينهم إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأجلاهم عن نجران وذهب أكثرهم إلى العراق .

(٥) أما أثر النصرانية فى العرب قبل الاسلام فهو ضئيل من حيث العقيدة والبحوث اللاهوتية ؛ وذلك لأن الديانة المسيحية فى صورتها التى استمدتها من الفلسفة اليونانية عسير فهمها على العقل العربى ، صعب تمازجها بالذهن البدوى . يقول دوزى : « وكانت مسيحية ذلك العصر فى عمومها - بما تحويه من الخوارق والأسرار ، وما فيها من عقيدة التثليث ، وما يتصل بذلك من إله مصلوب -

(١) ص ٣٠ ابن هشام على هامش الروض الأنف و ٣٢ كذلك .

(٢) ص ٧٢ زاد المعاد ج ٥ على هامش شرح المواهب اللدنية . ٤١ ج ٤ شرح المواهب

قليلة الجاذبية، يعز أن تسود في شعب حسي كالشعب العربي (١).
ويقول مرجليوث بصدد ضعف أثر المسيحية في بلاد العرب: «من الحقائق المدهشة أن هؤلاء المسيحيين من الأعراب لهم قسوس ورهبان وكنائس وصوامع، وفيهم هراطقة ومبتدعون، ومع ذلك لم نستطع حتى الآن أن نستدل بما لدينا من المصادر على أن الكتب المقدسة أكانت بأيدي العرب مترجمة إلى لغتهم الأصلية المحلية، أم أن القساوسة اكتفوا بأن يكون لهم كتب دينية، ثم يأخذون في التعليم منها في لغة يفهمها الأعراب. والأرجح عندي هو الرأي الثاني» (٢).

أما الذي يمكن أن يشاهد من الأثر بوضوح ويلبس في جلاء، فهو تأثير فريق منهم بالرهبة، والميل إلى الزهد، وتذكّر البعث والحساب والجنة والنار، والميل إلى النظر في الكون، والاعتبار بمجواته؛ وقد كثّر ذلك في شعرهم حتى ليحس القارئ وهو يقرأ شعراً لشاعر، كعدى بن زيد أو أمية بن أبي الصلت أو قس بن ساعدة أو الأعشى، أنه يسمع نغمات تعاليم المسيح عليه السلام من التزهيد في الدنيا والاستخفاف بنعيمها، والاحتراس من غرورها، وترقب الموت فيها. ولنكتف هنا بمثال واحد شعري لعدى بن زيد:

جاء في الأغاني (ج ٢ ص ١٣٤ طبع دار الكتب المصرية) أن النعمان بن المنذر خرج يتنزه بظهر الحيرة ومعه عدى بن زيد، فرأى المقابر من ظهر الحيرة ونهرها، فقال له عدى ابن زيد: أبيت اللعن. أتدري ما تقول هذه المقابر؟ قال: لا؛ فقال له: هي تقول:

أيها الركب المخبو ن على الأرض المجدون
كما أنتم كنا وكان نحن تكونون

ثم خرج خروجة أخرى فرأى تلك المقابر ومعه عدى؛ فقال له: أبيت اللعن أتدري ما تقول هذه المقابر؟ قال لا؛ قال: فإنها تقول:

من رأنا فليحدث نفسه أنه موف على قرن زوال
وصروف الدهر لا يبقى لها ولما تأتي به صم الجبال

(١) ص ١١٧ مقدمة التفسير للعلامة فريد وجدي

(٢) ص ٣٥ كتاب محمد.

رب ركب قد أناخوا عندنا يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليها قدم وجياد الخيل تردى في الجلال
عمروا دهرأ بعيش حسن آمنى دهرهم غير عجال
ثم أضخوا عصف الدهر بهم وكذلك الدهر يودى بالرجال
وكذلك الدهر يرمى بالفتى في طلاب العيش حالاً بعد حال

يقول فون كرامر والسير شارل ليال، وولھوسن، تعليقاً على هذه القطعة: « إن كثيراً من هذه الاحساسات الدينية لم تكن إسلامية في نغمتها، وإن عباراتها التي صيغت فيها لم تكن إسلامية في أصلها. وهذا أثر طبيعي -- ولو أنه ضئيل -- ونتيجة حتمية لانتشار اليهودية وبخاصة النصرانية (١) ».

على أن من أثر النصرانية أيضاً ظهور طبقة الموحدين الذين استنكروا عبادة الأوثان ونفروا من الخضوع للأصنام، كورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة.

وهناك أثر بين في الألفاظ والتراكيب لولا طول الكلام واستطراد البحث لسقنا أمثلة كثيرة، ولنكتف بالبعض، من ذلك: بيعة، واسقف، وقناديل، وصومعة، ودير، ورهبة، وغير ذلك.

(٦) بقيت لدينا مسألتان لهما اتصال وثيق بالنصرانية من الخير أن نبههما ونخرج على دراستهما.

المسألة الأولى — لماذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم الحبشة مهاجراً لأصحابه في الهجرة الأولى؟

والمسألة الثانية — ما السر في تعليق صورة المسيح وأمه بالكعبة، وقد أنزلت عند دخوله صلى الله عليه وسلم مكة مع الصور الأخرى، مع أن مكة ليست مركزاً للنصرانية، ولا من البلاد التي عرفت في التاريخ بانتشارها فيها؟

المسألة الأولى: عند ما اشتد عدوان المشركين على المستضعفين من أسلم بالأذى، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما

هو فيه من العافية لمكانه من الله وعمه أبي طالب قال لإصحابه : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لکم فرجا مما أنتم فيه . »

ولم يذكر أحد من كتاب السيرة حتى المحدثين علة هذا الاختيار ، ومن أين أتى للنبي صلى الله عليه وسلم حسن ظنه بالنجاشي . والسبب في رأينا هو :

أولاً - : أن النبي صلى الله عليه وسلم لا بد أن يكون بلغه عن ذلك الملك حديث عدل وأخبار إنصاف . ولكن كيف انتهى إليه ذلك وهو لم يسافر إلى الحبشة بل كل أسفاره كانت إلى الشام . فالمعقول أنه سمع ذلك من التجار الذين يذهبون ويحيثون بين مكة والحبشة ، إذ العلاقات التجارية بين البلدين وثيقة العرى متينة الأسباب . يدلنا على ذلك ما روى في ذيل الأمالى من ذهاب رؤساء قريش إلى الشام واليمن والحبشة وبلاد فارس ، لأخذ اليهود من ملوكها وتأمين السبل لتجار قريش . فليس يبعد أن يحمل هؤلاء معهم حديث صلاح النجاشي وحسن عدله ويسمعه النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

ثانياً - أن بمكة نفرا من الموالى الأحباش ومن فر من جيش أبرهة وفلوله ، فلا يبعد أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع منهم ما حسن ظنه بالنجاشي ؛ فعن عائشة رضی الله عنها قالت : « أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس » (٢) .

وقد ورد أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم ورث عن أبيه مولى يسمى شقران ، وكان حبشيا ، وورث عن أمه أم أيمن بركة الحبشية حاضنته (٣) .

ثالثاً - لم يجعل الرسول مهاجرهم يثرب لأنه يعلم أن العلاقات التجارية بين مكة ويثرب أقوى منها في الحبشة ؛ فمن السهل إذن أن يتأثر اليهود والأوس والخزرج

(١) ص ٢٠٤ ذيل الأمالى للقالى ، ٢٩ روح الاسلام .

(٢) ص ٢٣٦ تفسير جزء عم للالوسى . ص ٦٨٤ الفخر الرازى ٤٦٠ و ٤٨ ابن هشام - ٩١٠١ الازرقى .

(٣) ص ٣٠٧ - ٣ شرح المواهب ، ٤٨ المعارف لابن قتيبة .

سكان يثرب بهذه العلاقة فلا يحمون أصحابه ولا يدافعون عنهم، كما صنع النجاشي برده هدايا قريش وتخييب آمالهم .

رابعا — كانت يثرب في السنة الخامسة ، وهي التي حدثت فيها هجرة الحبشة في هرج واضطراب ، وكانت ميدان حروب وقتال^١ .

خامسا — أن يهود يثرب أظهروا معاضدتهم لقريش على النبي صلى الله عليه وسلم وعداءهم وحسد لهم للإسلام عند ما أرسلت إليهم قريش يسألونهم رأيهم في الرسول، اذهم أعلم به منهم لأنهم أهل كتاب ، فكان جوابهم أسئلة ثلاثة ليجيب الرسول عنها ، وحدث ذلك قبل هجرة الحبشة فبانت أمارات الشر في وجوههم وبشائر اللؤم في طباعهم . (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) .

سادسا — لم تكن الهجرة إلى قوم آخرين من عرب قلب الجزيرة ، لهيبة قريش وسلطانهم وارتباطهم تجاريا ودينيا .

سابعا — لم تكن الهجرة إلى الحيرة ، لأنها كانت إذذاك خاضعة للفرس ، ودولة الفرس في ذلك الزمن في دور الانحلال والاضمحلال .

ثامنا — لم تكن الهجرة إلى الشام ، لأنها تابعة للروم ، والدولة الرومانية في ضعف واحتضار .

وبعد — فالحبشة إذا هي البلاد الفذة التي ملكها مستقل ، وله شهرة بالصلاح والعدل . وقد صدق ظن النبي صلى الله عليه وسلم في النجاشي ، وبرهنت الأيام على حسن اختياره وسمو عقله وسعة اطلاعه على ما يدور حوله ويكتنف بلاده . هذا في رأينا هو التعليل ، لا ما ذكره الدكتور هيكل في كتابه (حياة محمد) من أن نصرانية الحبشة قد اندس إليها من شوائب الخلاف ، مالا يخشى معه على أولئك المسلمين ، فقد كان هذا حال كل بلد فيها نصرانية .

المسألة الثانية : وهي وجود صورة عيسى وأمه في الكعبة ، فقد ذكر هذا الخبر الأزرقى والزرقانى والحلبى^(١) ونقله دوزى ومرجايوت في كتابيهما ،

(١) ص ١٠٤ و ١٠٦ ، ١٠٧ أخبار مكة ، ٣٣٦ > ٢ الزرقانى شرح المواهب اللدنية ، ص ٨٧ ج ٣ السيرة الحلبية .

وقد أغفل هذا الخبر في كتابه الدكتور هيكل ولم يدر سر هذا الاغفال مع أنه نقل شطره، وهو صورة إبراهيم الخليل يستقسم الأضلام. أما تعليل هذا الأمر فهو يسير وطبيعي، وذلك :

أن قريشا كانت أمة تجارية مغرقة في التجارة حتى قال بعض اللغويين : إنما سميت قريشاً من التقرش، والتقرش التجارة والا كتساب (١). حياتها قائمة على التجارة وما تربحه من زيارة الحجيج للبيت (ربنا إني أسكنت من ذرتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم. ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم).

فنظرتهم إلى الكعبة هي نظرة تجارية (٢). وفي وصية أبي طالب عند موته ما يفيد أنهم كانوا يعتبرون الكعبة سبيلاً لجلب الخير لهم، وعاملاً في أنماء ثروتهم (٣) فعاطفتهم الدينية ضعيفة، وتمسكهم بدينهم هو في الغالب تمسك المقلد لآبائه المحتفظ بمنبع يدر عليه الرزق الواسع والخير العميم؛ فعبادتهم للاصنام لتقربهم إلى الله زلني (مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلني)، وهي فكرة تجارية أيضاً. ثم أليس في مقابلة عبدالمطلب لأبرهة، وطلبه منه ماله، وجعل همه هو تخليص بعرانه ما يؤيد هذا الرأي، ولذا دهش أبرهة لهذا الطلب وعجب من هذه الرغبة دهشة الرجل الذي لا يعدل بالاحساس الديني إحساساً. فقال أبرهة لعبد المطلب : «أتكلمني في مثي بغير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟» (٤).

وأجلى مظهر لضعف العاطفة الدينية عندهم أنهم لم يكونوا على أمر جامع من عقائدهم، شأن الذين لا عراقة لهم في الدين، وليست لاصنامهم هيئة ممتازة تسيطر على عقائدهم وتمدهم بالتعاليم التي تذكي نار العاطفة في نفوسهم، بل كانت وثنياتهم وثنية ساذجة لا تتجاوز تقليد الآباء واتباع الأسلاف. قال تعالى :

(١) ص ٧٠ ابن هشام - ٦١ الأزرقي.

(٢) ص ٤٥ الاصنام لابن الكلبي.

(٣) ص ٣٢٨ ج ١ بلوغ الأرب.

(٤) ص ٤٤ ابن هشام، ٨٩ الأزرقي. والكشاف للزمخشري تفسير سورة الفيل.

« إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون » . « قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » . « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » .

لهذا كله كان في الكعبة وحولها جميع أصنام العرب التي كانوا يعبدونها ، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة وحول البيت (٣٦٠) صنما ، مع أن أصنام قريش - وهم سكان مكة وسدنة البيت وزعماء التجارة - فيها لا تعدو أصابع اليد وأعظمها (هُبَا) (١)

ولكنهم سمحوا بتعليق كل هذه الأصنام لأن الكعبة ليست لهم وحدهم . بل هي بيت الأمة العربية جمعاء ؛ فلا بد من البحث عما يرضى كل قبيل في الأمة وإلا غاض رزقهم . وخسرت تجارتهم .

ذكر الأزرقى أنه كان يدفع لسادن (هبل) مئة درهم ومئة جزور ليضرب قداحه ويستقسم بأزلامه (٢) ، فالكعبة إذن كانت في نظرهم بمنزلة (البنتيون Pantheon) عند قدماء اليونان ، فهي مجمع آلهتهم ، وهيكل أربابهم . (٣) فلا غرابة إذن إذا كنا نرى صورة المسيح عليه السلام وأمه في الكعبة ، طلبا لرضا القبائل المنتصرة . والبطون المسيحية كالغساسنة واللخميون وغيرهم . وهذه النظرة إلى قريش تفسر لنا كثرة وزود كلمة التجارة والبيع والشراء في القرآن في أكثر من موضع .

قال تعالى في تصوير المثل الأعلى للرجال المخلصين لدينهم ، الحراس على رضا ربهم : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » . وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) .

(١) ص ٢٧ إلى ٢٩ الأصنام للكلبي .

(٢) ص ٦٨ و ٦٩ اخبار مكة للأزرقى .

(٣) ص ٣٩ سديو .

وقد لازمت هذه الصفة أهل مكة حتى بعد هجرتهم إلى المدينة . قال تعالى :
(وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) . وقال تعالى : (قل إن كان
آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة
تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله
فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) هذا ما استطعنا أن نتحدث به عن النصرانية في
بلاد العرب . وموعدنا إن شاء الله العدد القادم : اليهودية في بلاد العرب .

عبر الوهاب صموده

— ١ —

* شكّا رجل إلى قاض من قضاة المسلمين ، فقال له : إن لي جيرانا يسرقون
إوزي . فنادى القاضي : الصلاة جامعة ، ثم خطبهم فقال في خطبته : وأحدكم
يسرق إوز جاره ، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه . فمسح رجل رأسه . فقال
القاضي : خذوه فانه صاحبكم .

— ٢ —

* قال معاوية لعبد الله بن عامر . إن لي اليك حاجة أنقضها ؟ قال : نعم ، ولي
اليك حاجة أتمضيها ؟ قال : نعم ، قال : سل حاجتك ؛ قال : أريد أن تهَب لي دورك
وضياعك بالطائف ؛ قال : قد فعلت ، قال : وصَلتْك رحم ، فسل حاجتك ،
قال : أن تردّها علي ؛ قال : قد فعلت .

* هاتان الطرقتان وغيرها مما ستره القراء في هذا العدد من نسخة مخطوطة من كتاب الطراف
والتماجين لابن الجوزي — اختارها الأستاذان : ابراهيم الأبياري ، وعبد الحفيظ شلي .